الفصل الرابع

في فرنسا

ياله من شعُور عميق بالسعادة ! أن يجد الإنسان نفسه بين السماء والماء ! ! هذا الجزء من ملكوت الله الواسع الذى لا ترى له حدوداً ، كأنه « اللانهـــاية » لقد كانت الأيام التى قضيتها فى الباخرة فترة من التأمل ، عمّقت الإيمان فى قلبى ، وأذكت الشعور الدينى فى روحى ووجدانى . وفى كل كيانى .

فى مارسيليا

ونزلنا « مارسيليا » . ويبدو أن الوقت – الذى نزلنا فيه – كان وقت انصراف العمال للغذاء ؛ لقد رأيت السرعة فى كل اتجاه ، ونشاط الحركة فى كل ناحية ، ورأيت النساء والفتيات وكأنهن يقفزن فى سيرهن من السرعة ، كما كنَّ يتحدثن فى سرعة أيضاً ، وهن فرحات ، مستبشرات ، سعيدات ، يضحكن فى سرور وبشاشة .

ولست أدرى لماذا تواردت – على ذهنى – صور من الشعر العربى ، تصوّر الجمال فى النسَاء العربيات . . . وثب إلى ذاكرتى قول ذلك الشاعر الذى يعبر عن المثل الأعلى فى جمال المرأة ، بقوله :

« مشى القطاة ، ونطقها إيماء »

إن المرأة – هنا – لاتمشى مشى القطاة ، وليس نطقها – كما يقول الشاعر – إيماء . . . فأين إذن « نؤوم الضحى » ؟

إن كل شىء هنا يوحى بالنشاط ، والحركة والسرعة .

والرجال فى سرعة دائبة ، وحركة مستمرة ونشاط وحيوية دائمين .

وهذا الذى رأيته « فى مارسيليا » رأيته فيما بعد فى كل مكان توجهت إليه .

وصلى الله على « سيدنا محمد رسول الله فإنه كان يسير ، والصحابة من خلفه كأنهم يعدُون .

ورحم الله « عمر بن الخطاب » : كان إذا مشى أسرع .

وهل تنهض الأمم بالكسل والخمول ؟ .

إن النشاط والحركة من صفات المؤمنين ، فهما عنوان القوة :

(المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف) .

ومن آثارنا المتداولة :

« فى الحركة بركة » – « البركة فى البكور » وغير هذا كثير .

وأرجو الله – مخلصاً – أن يكتب لأمتنا أن تنفض عنها غبار الكسل والخمول ، وأن يوجهها إلى أداء الأعمال فى أوقاتها وألا تؤخر عمل اليوم إلى الغد .

ورأيت فى مارسيليا أمراً آخر – نحن أشد ما نكون حاجة إلى الانتباه له ، والى الالتزام به ؛ لأنه من شعب الإيمان – ذلك هو النظافة : نظافة الشوارع ، ونظافة المحالّ ، ونظافة الناس جميعاً ذكوراً وإناثاً ، صغاراً وكباراً .

وتجتمع النظافة مع التنسيق والتناسق ، فيبدو الجو كله فتنة للناظرين .

وديننا دين الجمال ، والنظافة ، والطهر : « إن الله جميل يحب الجمال » « إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً » . « خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ » .

والوضوء ، والغسل وفرض طهارة الجسد ، والثوب ، والمكان للصلاة . . إن كل ذلك وكثيراً غيره ، يوجه المسلم فى قوة واستمرار إلى النظافة ، بل وإلى التنسيق ، ولكننا – بكل أسف – فى غفلة عن كل ذلك : شوارعنا ، أطفالنا فى الريف وغيره ، المحال التجارية ، مكاتب الموظفين . . . إن مظاهر كل ذلك تسىء إلى الذوق ، وإلى الدين .

إن إماطة الأذى عن الطريق من الإيمان ، ولكننا لانتجه لإماطة الأذى عن الطريق ، بل على العكس نحن الذين نقذف بالأذى فى الطريق .

« اللهم يسر لأمتنا التزام توجيهك » . . .

ولكن الأمر الهام الذى أحب أن يتنبه إليه الجميع ، ويفكروا فيه : هو أننا – وكنا مجموعة ، قضى بعْضنا سنوات فى فرنسا من قبل – بمجرد أن نزلنا إلى مارسيليا ، وأخذنا نطوف هنا وهناك ننظر إلى واجهات المحال التجارية ، وإذا ببعضنا يصل – وبسرعة – إلى إقامة علاقات ببعض الفتيات . . . والواقع : أنه إذا لم يسافر الطالب إلى البلاد الأجنبية – وهو محصن بالخلق وبالإيمان – فإنه – من المؤكد . ينزلق إلى الإثم . . . وقد بدا ذلك الأمر واضحاً ، حينما طال بى المقام فى فرنسا :

امنعوا سفر الفتيات

إن الطالب ينزلق إلى الشرب ، وإلى الصلة الآثمة فى مجال الجنس ، وإلى التخلى عن كل الفروض الدينية . والأخطر من ذلك ، سفر الفتيات إلى فرنسا : إن الفتاة تسافر – عادة – فيما بين العشرين ، والخامسة والعشرين من عمرها . . . وهنا مكمن الخطورة ، بل الخطورة نفسها بالنسبة للفتاة فى هذه السن . . . وما من شك فى أن تقاليدنا ، وأخلاقنا ، وديننا ومحيطنا كله ينهار أمام غريزة الجنس فى تلك السن . ولا ريب أن الفتاة سوف تقاوم – لأول مرة – رعاية لدينها ، وخلقها ، وشرفها . . . ولكن الجو الذى تعيش فيه سيدفعها – حتماً – إلى الصلة الجنسية : إنها تقاوم ، مافى ذلك شك ، ولكن إلى متى . ! ! ؟ . . . سيدفعها الأصدقاء إلى « الخيالة » العابثة ! ثم إلى الشرب ! ثم ينتهى الأمر إلى السقوط .

إننى – هنا – لا أتحدث بالمنطق ، وإنما أتحدث عن واقع محسوس ، وما دام الأمر – كذلك – فإن كل نقاش فيه يتهافت أمام الواقع .

لقد شاهدت فتاة مسلمة من أسرة لها مكانتها الاجتماعية فى مصر تسقط مع شاب مسيحى ، ويبدو أن أسرتها علمت فأرسلت إليها تستدعيها ، فتمردت الفتاة على أسرتها ، ولست أعلم المصير الذى انتهت إليه .

إن فى مصر كل ما تحتاج إليه الفتاة من علم ، أما التخصص المتخصص فى بعض جوانب المعرفة ، فنحن فى غنى عنه بالنسبة للفتيات ، ونحن – بحمد الله – وصلنا فى جامعاتنا ومعاهدنا العليا إلى درجة كبيرة

فى مختلف التخصصات .

وإنى هنا أهيب بوزارة التعليم العالى وبالآباء والأمهات ، وبكل مستمسك بالفضيلة ، وبكل داع لها ، أقول لكل هؤلاء إن إرسال الفتيات إلى أوربا لا ضرورة حتمية تستدعيه ، وإن ضرره أكثر من نفعه ، بل يمكن أن يقال : إنه ضرر كله .

« ألاهل بلغت ، اللهم فاشهد » .

صليت الجمعة فى باريس

وذهبت إلى باريس ، ومررت بمكتب البعثات ، ولكننى أخذت أتخبط فى طريق – يميناً ، ويساراً ، وشرقاً وغرباً – وكان من الممكن أن أضيق بالحياة فى باريس لأول عهدى بها ، وكان من الممكن أن آخذ تذكرة للعودة والبواخر كثيرة . . . .

وجاء يوم الجمعة وأخذت أذرع شوارع الحى اللاتينى وما يحيط به بحثاً عن مسجد باريس الشهير ، ودخلت المسجد وصليت الجمعة .

وما إن انتهت الصلاة ، حتى رأيت شخصاً تلوح على وجهه سمات الطيبة يتجه نحوى ، ثم يسألنى :

هل أنت مصرى ؟

نعم

هل تعرف محمود بك سالم ؟

لم يسعدنى الحظ بذلك .

هيا إذن لأعرفك به

نشاط إسلامى فى باريس

وذهبت معه ، وقابلت السيد « محمود سالم » وأحسست عند لقائه بالارتياح إليه ، والضيق به ، فى آن واحد : كانت نظراته كأنها انعكست انعكاساً تاماً فى داخل نفسه ، واستقرت على أفكاره ، فهى ترى الأفكار وحدها دون نظر إلى المخاطبين ، لم يكن حفياً فى تحيته ، لكنه قال بدون مقدمات ، وهو يمد يده بطريقة آلية : موعدنا الليلة ، فى المحطة الساعة الخامسة لنستقبل الأستاذ « خالد شلدريك » .

فأخذت أسائل نفسى : من هو « خالد شلدريك » ؟ ولم نستقبله ؟ وهل من الضرورى أن أذهب لاستقباله ؟

تلك أسئلة دارت بخلدى ؟ ولم أجد لها جواباً ، وكادت تعوقنى عن الذهاب ، ولكن حب الاستطلاع ، والشعور بالغربة ، الذى يدفع إلى حب التعرف بالآخرين دفعانى إلى الذهاب فى الموعد المحدد .

وجاء « خالد شلدريك » وكانت السيارات معدّة ، فركبنا ، وكنا جمعاً غفيراً ، ولكنى لم أكن أدرى إلى أين نحن ذاهبون .

ووصلنا إلى قصر فخم ، ونزل الركب ، واستقبلتنا سيدة أنيقة فى صالون غاية فى الفخامة والأبهة .

لقد كانت - كما عرفت فيما بعد - أميرة « سراواك » ، إحدى ولايات ماليزيا ، أميرة إنجليزية أسلمت ، وكتبت كتاباً عن سبب إسلامها ، نشرته على نطاق واسع ، وفى هذا المجتمع الذى اختلفت

الجنسيات فيه ، أدهشنى حقًّا : أن أرى كثيرين فيه ، أسلموا بعد أن ولدوا على ديانات أخرى ، وهم الآن مجتمعون لتحية « خالد شلدريك » الذى أسلم ، وكرس حياته لنشر الإسلام .

وبعد أن تناولنا الشاى خرجنا من جديد إلى قاعة محاضرات فسيحة الأرجاء ، ألقت فيها الأميرة محاضرة عن الإسلام ، وكان عدد المستمعين كثيراً يتحدثون ويتناقشون ، وأدهشنى من جديد أن أرى كثرة الذين أسلموا حينما درسوا الإسلام . ولكن هذه الحادثة كانت السبب الذى أثار فى نفسى التفكير فى كتابة كتاب بعنوان « أوربا والإسلام » وسنتحدث عنه فيما بعد إن شاء الله .

الدراسة فى فرنسا

وانتظمت فى سلك الدراسة ولم تكن سهلة : اللغة ! ! والكتابة بها ، النقلة المفاجئة من جو الأزهر ، إلى جو الدراسات الغربية . . . . كل ذلك كان يمثل عقبات لابد من تذليلها ، . . . . وذللت ، وأصبحت الحياة رخاء ، ونجحت فى أول مادة وكانت « علم النفس » .

والدراسة فى فرنسا ، لا تجزئ المادة ، لتدرسها فى سنوات عدة ، وإنما تدرس المادة بأكملها ، و« الليسانس » فى كلية الآداب ، مجموعة من المواد ، لك الحرية فى أن تجدّ فى تحصيلها ، حتى تقطع المرحلة الجامعية فى ثلاث سنوات مثلا ، ولك أن تكسل ، فتقطعها فيما شئت من سنوات ، قد تصل إلى عشر .

وهو نظام جميل ، فإن المسألة ليست سنوات ، تدرس فى كل سنة مجموعة أجزاء من عدد من المواد ، وكذلك فى السنة التى تليها ، كلا ! وإنما تدرس المادة كاملة ، وحدها ، أو مع مادة أخرى إذا شئت ، على أن تكون المادة الأخرى كاملة أيضاً .

حتى إذا انتهى الطالب من دراسة خمس مواد تحددها نوعية « الليسانس » التى يريدها . . نجح فى الليسانس . ولابدَّ فى الامتحان « لليسانس » من أداء امتحان فى لغة أخرى ، مع اللغة الفرنسية .

والطالب – عادة – يختار لغته ، ومع ذلك فهو مضطر لإعادة النظر فيها ؛ لأنه سيؤدى الامتحان أمام متخصصين .

وليس للغات – من أجل الليسانس – منهج يدرس ، وإنما هناك برامج توزع ، ويتصرف الطالب فى شأن تحصيلها بكل حريته حسبما يريد .

لا يشترط أن يكون بين أوراق الطالب ، شهادة إتمام الدراسة الثانوية العامة ، أو ما يعادلها ، عند أول عهده بالدراسة ، ولا عند دخول الامتحانات . . . وإنما يطالب بها – فقط – عند دخول الامتحان الأخير الذى يحصل به على « الليسانس » .

وهذه أوضاع فى غاية الحكمة ، لأنها تعبير صادق ، عن الوضع الذى يجب أن يكون عليه الجو الجامعى ، وياحبذا لو أخذت به كليات الآداب فى جمهورية مصر العربية .

من الليسانس إلى الدكتوراه

بدأت الدراسة فى « فرنسا » منذ سنة ألف وتسعمائة واثنتين وثلاثين ، على نفقتى الخاصة ، ودام الأمر كذلك إلى سنة ألف وتسعمائة وثمان وثلاثين . . . حيث أُلحقت بالبعثة الأزهرية . وكنت قد فرغت من « الليسانس » تقريباً . وبدأت أفكر فى رسالة « الدكتوراه » .

فكرت فى موضوع يتصل « بفن الجمال » ، ثم عرضته على المختصين ، فرُفض ، ففكرت فى موضوع يتصل « بمناهج البحث » وعرضته فرفض أيضاً . . . وأشهد أن أسباب الرفض ، كانت مقنعة لى تماماً .

دكتوراه فى « التصوف الإسلامى »

وأخيراً اتصلت بالأستاذ « مسينيون » ، وتحدثنا طويلاً فى هذا الموضوع ، وانتهى بنا الأمر إلى الاتفاق على أن أكتب عن « التصوف الإسلامى » من خلال دراسة « الحارث بن أسد المحاسبى » .

وكان هذا أول اتصال منظم ، وجاد بالتصوف الإسلامى ، بالنسبة لى .

وكانت كتب « المحاسبى » المطبوعة حينذاك نادرة . وطلبت المخطوطات التى بمكتبة الأزهر والمخطوطات التى بدار الكتب المصرية ،

وقد أعارنى الأستاذ « مسينيون » كل ما عنده من مخطوطات « للمحاسبى » وكانت كثيرة وبدأت العمل . . ولكن الحرب العالمية الثانية قد اشتعل أوارها فى سنة ألف وتسعمائة وتسع وثلاثين ، وبقيام الحرب اضطرب كل شىء بالنسبة لى .

فالأستاذ « مسينيون » قد استدعى للجيش ، وارتدى الملابس العسكرية ، وأصبحت مقابلته متعذرة ، لا تتيسر إلا بمكتبه ، فى وزارة الحربية ، أو الخارجية ، لست أذكر الآن أيهما على وجه التحديد ، ولم يكن ذلك سهلاً ، ناقشت الرسالة بعد أن انتهيت من إعدادها ، وقدر الممتحنون لها درجة الشرف الأولى « الامتياز » .

وأحب أن أشرك القراء فى شىء منها مما أعتز به .

ومن مقدمتها ننقل ما يلى :

١ – يتسم التاريخ – سياسيًّا كان أو فكريًّا – بفترات تبدو فيها الحيوية الجارفة ، وهذه الحيوية تتركز فى شخص أو أشخاص نابغين ، يلقون بأنفسهم فى مجرى الحياة الهادئ الوديع ، فتضطرب الحياة وتموج ، ويعلو موجها وينخفض ، وتصطرع القوتان – قوة الشعب الذى يتبع التقاليد ، وقوة المصلحين النابغين فترة تطول أو تقصر ، ثم تنحسر الأمواج ، وتهدأ الأمور ، فإذا بالحياة تأخذ لوناً جديداً ، وإذا بالقيم قد تغيرت ، فى قليل أو فى كثير .

ومهما يكن من شىء ، فإن عظماء الرجال – على أى وضع قضوا نحبهم – ، لا يتركون هذا العالم إلا وقد تركوا أثراً لا ينمحى أبد الدهر .

وقد ينشأ النابغة ، فيجد نفسه فى ميدان المعركة ، مختاراً أو مضطرًّا ، وتشرع نحوه الأسنة ، وتتجه إليه السيوف المهندة ، فيدافع ، ويهاجم ، ويغلب ، أو يغلب ، ويترك ، على كل حال ، أثراً .

ونشأ المحاسبي ، وفى العالم الإسلامى قوتان هائلتان تصطرعان :

١ – أهل السنة ، ويمثلهم الإمام أحمد بن حنبل .

٢ – المعتزلة ، ولهم ممثلوهم فى البصرة والكوفة وبغداد .

وهذا الصراع بين المعتزلة وأهل السنة : صراع طبيعى ، لا يخلو من مثله دين من الأديان :

إنه الصراع الخالد بين النصيين والعقليين .

إنه النزاع الأبدى بين الذين يقولون : إن الدين نص تفسره أسباب النزول واللغة والرواية ، والذين يقولون إن الدين نص يفسره العقل ويوضحه .

ويظن بعض الناس – للوهلة الأولى – أنه لا يمكن أن يكون هناك طرف ثالث فى هذه الخصومة : فالإنسان إما نصى ، وإما عقلى ، ولا يحتمل الأمر حلاً ثالثاً .

ونشأ المحاسبى ليعلن هذا الحل الثالث .

لقد هاجم المعتزلة هجوماً عنيفاً ، وألف كتاباً خاصًّا كان من بين أهدافه الرد عليهم ، سماه « فهم القرآن » .

لقد رأى فى نزعتهم العقلية طغياناً لا يتناسب ومقام العبودية ، ورأى أن نزعتهم تحكّم العقل فى القرآن ، وتجعله يسيطر على النص . ولو كان الأمر كذلك لكان القائد فى الحقيقة وواقع الأمر : هو العقل

لا الكتب المقدسة .

وإذا كان المعتزلة قد خدموا الدين خدمات جليلة ، تتمثل فى دفاعهم المجيد عنه ، ورد هجمات أعدائه ، وتأييده منطقياً وعقلياً ، فإنه مما لا شك فيه : أن العقل لو ترك وشأنه لا يمكنه أن يتسلل إلى عالم : « ما وراء الطبيعة » فيفسر لنا غامضه ، ويوضح لنا من أمره ما انبهم .

لا بد إذن أن يخضع العقل للنص .

ومذهب المعتزلة إذن ، لا يسير فى عالم : « ما وراء الطبيعة » على النهج الصواب .

هناك إذن : إفراط وتفريط .

والعبودية الحقة – فيما يرى المحاسبى – هى المنهج الصحيح للوصول إلى المعرفة الحقة ، ودخل المحاسبى المعركة ، وسلاحه فيها : عبودية حقة ، وإخلاص لا حد له ، وتقوى تغمر كل الجوارح ، ومن قبل ذلك ومن بعده : دراسة مستفيضة للدين : وسائله ، وغاياته ، جزئياته ، وكلياته ، التقوى والعلم إذن كانا سلاحه فى المعركة ،

واحتدم النزاع ، وكان لابد من أن يحتدم ، وثار الفقهاء على المحاسبى ، وكان لابد أن يثوروا ، فقد كان المحاسبى ينهج فى درسه منهجاً آخر غير الطريق العادى التقليدى :

كان يتحدث فى الإخلاص ، فى الورع ، وفى الزهد ، وفى الخشوع الخالص لله .

وكان يتحدث فى هيبة الله ، وجلاله وعظمته .

وكان يتحدث فى محبة الله ، والأنس به ، والقرب منه .

وكان حديثه عذباً ، طلقاً ، سامياً ، فكانت تخشع له الأفئدة ، وتلين له القلوب ، وتسيل له الدموع ، ويتذكر الناس مالله من فضل ، فترق قلوبهم ، ويتعاهدون على الاستقامة .

وملأت سمعة المحاسبي أرجاء بغداد ، ثم عبرتها إلى جميع أرجاء المملكة الإسلامية المترامية الأطراف ، وكلما أخذت شهرته فى الازدياد ، كثر خصومه وشانئوه ! ! !

ولكنه كان يسير فى طريقه ثابت الخطى ، لا يعنيه سوى أن يكون الله راضياً عنه ! ! !

وتكشفت له الحجب ، وزالت عنه المساتير . ووصل إلى المعرفة الحقة ، فأعلن طريقها ،

وطريقها ليس حساً يخطئ ، وليس عقلاً يضل ، وإنما هو : بصيرة وضاءة ، وروح صافية .

واستمرت الخصومة بين النصبين ، ويمثلهم الإمام « أحمد » ، والبصيريين ويمثلهم الإمام المحاسبي ، والعقليين ويمثلهم المعتزلة .

ومن غريب الأمر : أن أية قوة من هذه القوى لم تخرّ صريعة ، بل بقيت قوية ، واستمرت فى كفاح ونضال ، حتى يومنا هذا ،

تسلسلت فكرة المحاسبي ، وتمثلت خير تمثل فى الإمام « الغزالى » ، ثم فى بقية الصوفية من بعده حتى كان العصر الحاضر ، فكان يمثلها فى أسلوب جديد ، وتعبير صادق ، المرحوم : الشيخ « عبد الواحد يحيى »

الذى توفى فى بداية النصف الثانى من القرن الحاضر .

وتسلسلت فكرة الإمام « أحمد » ، فتمثلت فى الإمام : « ابن تيمية » الذى وضع لها المنطق ، وأرسى لها القواعد والأصول ، واستمرت قوية إلى عهدنا الحاضر ، وكان يمثلها المرحوم : « الشيخ رشيد رضا » تمثيلاً قوياً .

وتسلسلت فكرة المعتزلة ، راكدة حيناً ، وقوية حيناً آخر ، حتى كان « جمال الدين الأفغانى » ، فدفعها دفعاً قوياً إلى عالم الظهور .

وكان « الشيخ محمد عبده » من أهم العوامل فى نشرها ، ملطفة خفيفة تكاد تخفى ، أوتكاد تلبس ثوب السلفية .

وحمل اللواء من بعده ، المرحوم : « الشيخ المراغى » والمرحوم : « الشيخ مصطفى عبد الرازق » وفكرة « الإمام محمد عبده » تتمثل فيهما حقيقة ، لا فى الشيخ « رشيد رضا » ، كما يظن كثير من الناس .

لاتزال تلك القوى الثلاثة تتصارع حتى عهدنا هذا ، ونعتقد أنها ستستمر ، ذلك : أنها تمثل نزعات فطرية فى بنى الإنسان : فبعضهم واقعى يتجه إلى النص ، ولا يريد ، أو لا يمكنه ، أن يسير إلى أبعد منه ، وبعضهم : يحتفظ بشخصيته ، قوية جارفة لا تلين ، فهو عقلى أو اعتزالى . وبعضهم : رقيق الشعور ، مرهف الحس ، ملائكى النزعة ، فهو بصيرى أوصوفى .

نزعات ثلاثة ، تقوم على فطر مختلفة ، وهذه الفطر ستستمر فى بنى البشر ، ما دام على وجه الأرض أفراد من النوع الإنسانى ، ومن هنا كان خطأ هؤلاء الذين يحاربون التصوف ، أو الاعتزال ، أو النصين ، على أمل أن يقضوا على اتجاه من هذه الاتجاهات .

٢ – روى صاحب « طبقات الصوفية » بسنده ، عن « الحارث ابن أسد المحاسبي » بسنده ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال :

« أثقل ما يوضع فى الميزان : حسن الخلق » .

ولقد وضع المحاسبي هدفاً له فى الحياة يسعى إلى تحقيقه ، هو : « حسن الخلق » لقد وضعه هدفاً يعمل على تحقيقه فى نفسه ، ووضعه هدفاً يعمل على تحقيقه فى مجتمعه .

أما فيما يتعلق بنفسه ، فإنه أخذها بتحقيق صفة العبودية ، على أساس من القرآن الكريم ، والسنة الشريفة ، لا يحيد عنه .

وإنه ليعبر عن شعاره فى ذلك ، فيقول هذه الكلمة التى تصفه حالاً ومقالاً :

« إذا أنت لم تسمع نداء الله ، فكيف تجيب داعى الله ؟

ولم يجهل المحاسبي قدر الله ، فلم يستغن بشيء دونه سبحانه .

وأما فيما يتعلق بالمجتمع ، فإن المحاسبي أخذ فى نشر حسن الخلق فيه بسمته ، واتباعه للسنة ، وبدروسه التى كانت تفعل الأعاجيب فى القلوب ، وبكتبه التى تبين حسن الخلق : وسائل ، وغايات ، والتى لا يزال لها إلى الآن أريج عطرى ، يتجدد على مرّ الزمن ، فيهدى الحيارى ، وينير الطريق أمام السالكين .

٣ – ولكن من هو « المحاسبي » ؟ ومالنا نتعجل ، فنتحدث عن المحاسبي فى القمة قبل أن نبدأ معه من البداية ؟

إنه « الحارث بن أسد » ، وكنيته : « أبو عبد الله » ،

وقد نشأ بالبصرة ، واستمر بها سنوات لا يتأتى لنا تحديدها فى يقين

جازم ، ثم ذهب إلى بغداد ، ويبدو أنه ذهب إليها فى سن مبكرة ، واستقر به المقام فيها .

متى ولد ؟

إننا لا نعلم بالضبط تاريخ ميلاده ، إذ أن الكتب القديمة التى تحدثت عنه ، لم تذكر ذلك ، بيد أن الملابسات ترشد إلى أنه ولد – على التقريب – فى العقد السابع من القرن الثانى الهجرى .

أما وفاته : فإن الكتب التى أرخت له تحدد سنة ٢٤٣ هـ ثلاث وأربعين ومائتين للهجرة .

وحياته الشخصية لا نكاد نعلم عنها شيئاً ، وقد يمكننا أن نقول : « استنتاجاً » إنه قضى طفولته فى شىء من اليسر والرخاء ، ذلك أن والده حينما توفى ترك ثروة تقدر بسبعين ألف درهم .

ويروى المؤرخون أن المحاسبى حينما توفى والده ، لم يأخذ من هذه الثروة شيئاً تورعاً ، ذلك أن والده كان يقول بالقدر . أى أنه كان قدرياً ، يدين بمذهب المعتزلة ويقول المؤرخون لحياة المحاسبى : إنه لم يستسغ أن يشترك فى الميراث ، توسعاً فى تطبيق القاعدة الإسلامية التى تحرم التوارث بين أهل دينين مختلفين .

ولكن « المحاسبى » – فيما يبدو – امتنع عن ذلك لمجرد الورع ، والزهد فيما تجره الثروة ، وتستتبعه من تفكير فيها ، وتدبير لها ، وتنمية وحفظ.

هذه الحادثة ترشد إلى أمور :

الأمر الأول هو : أن أسرة « المحاسبى » كانت أسرة ميسورة .

الأمر الثانى : هو أن والد « المحاسبى » كان من الذين اشتركوا

فى الثقافة الدينية والجدل الكلامى . وأسهم فى ذلك بنصيب ، وحدد المعسكر الذى يقف جندياً فى جيشه .

وما من ريب فى أن العامة حينئذ لم يكونوا فى صف المعتزلة ، وما كان الذى يدين بما يدين به المعتزلة يفعل ذلك إلا بعد دراسة واختبار ، وأن الطريق التقليدى الذى يتبعه الجمهور الأعظم من الأمة إنما هو طريق أهل السنة » .

والأمر الثالث الذى ترشد إليه الحادثة : هو ورع المحاسبى الذى حمله على أن يزهد فى الميراث مع حاجته إليه : تورعاً وتقوى .

ونبأ آخر نتبين منه شيئاً عن شخصية المحاسبى يقول الجنيد : كنت كثيراً أقول « للحارث » : عزلتى أنسى ، فيقول : كم تقول عزلتى أنسى ؟ لو أن نصف الخلق تقربوا منى ، ما وجدت بهم أُنساً ، ولو أن نصف الخلق الآخر ، نأى عنى ما استوحشت لبعدهم .

هذه القصة ترشدنا إلى قوة شخصية الإمام المحاسبى ، والواقع أن الظروف والأحوال الثقافية التى أحاطت « بالمحاسبى » ، وموقف « المحاسبى » منها ، وحديث تلاميذه عنه – وإن كان نادراً – كل ذلك يرشد إلى أنه كان صاحب شخصية إيجابية قوية .

ومما يستأنس به تأييداً للقصة السابقة ، وإشارة إلى ما « للمحاسبى » من شخصية إيجابية قوية ، وبياناً عابراً عن بعض أساليبه فى تأليف كتبه ، ما رواه الجنيد أيضاً بقوله :

كان « الحارث المحاسبى » يجىء إلى منزلنا ، ليقول : اخرج معى نصحر (أى نذهب إلى الصحراء) فأقول له :

تخرجنى عن عزلتى وأمنى على نفسى ، إلى الطرقات والآفات ورؤية الشهوات ؟ فيقول :

اخرج معى ، ولا خوف عليك ، فأخرج معه ، فكأن الطريق فارغاً من كل شيء ، لا نرى شيئاً نكرهه » فإذا حصلت معه فى المكان الذى يجلس فيه قال لى :

سلنى :

فأقول له : ما عندى سؤال أسأله .

فيقول : سلنى عما يقع فى نفسك .

فتنثال على الأسئلة ، فأسأله عنها ، فيجيبنى عليها للوقت .

ثم يمضى إلى منزله فيعملها كتاباً .

ترشد هذه القصة إلى أن المحاسبى لم يكن يخشى : « الطرقات والآفات ورؤية الشهوات » ، وأنه لم يكن يؤثر العزلة وما فيها من أمن على النفس وعدم تشتيت للفكر ، كلا ، إنه يجابه الحياة ، محاولاً السير بها إلى ما يراه حقًّا وإصلاحاً .

أما فيما يتعلق بطريقته فى التأليف : فإنه يعمل أحياناً على تلبية ما يرغب المتحدثون فى الإجابة عنه ، وهى طريقة حية : إنها استجابة لما يحب المجتمع أن يرى الرأى الصريح فيه ، إنها تتصل بالحياة الواقعية .

ولم تكن كتبه كلها على هذا النسق ، فإن بعضها كان إسهاماً فى الحركة المقاومة لحركة الاعتزال ، وكان بعضها حلقات فى التخطيط الذى رسمه « المحاسبى » للإصلاح الأخلاقى فى المجتمع .

٤ – على أننا قد تعجلنا الحوادث مرة أخرى ، فتحدثنا عن « المحاسبي » في القمة ، ولم نتدرج معه تدرجاً طبيعياً .

ولنعد إلى « المحاسبي » أول مقدمه بغداد : كان ذلك فيما يبدو في سن مبكرة نسبياً ، وكانت بغداد حينئذ تموج بمختلف التيارات الفكرية : ثقافة يونانية وافدة ، تريد أن تأخذ حق الإقامة ، سيدة متغلبة .

وثقافة فارسية يحاول نشرها الفرس ، بما لهم من تأثير ونفوذ ، وبما لهم من مال وثراء ، وبما لديهم من ترف فكري ، وبما في نفوسهم من كبت لزوال ملكهم ، يحاول أن يتنفس – شاعراً أو غير شاعر – في صورة ثقافة تنافس الثقافة الإسلامية البحتة .

وثقافة عربية مشوبة بثقافات أخرى ، تريد أن تجد حلا للتعارض والتنافس بين مختلف الألوان والأجواء الثقافية .

وثقافة إسلامية بحتة ، تجاهد في أن تفوز بقيادة المجتمع إلى الهداية الربانية والرشاد الإلهي .

وجاء « المحاسبي » بغداد متعلماً ، ومتثقفاً ، أو مستزيداً من العلم والثقافة : يبتغي السير على السنن المستقيم .

وأخذ في الدرس في جد واجتهاد : فتشعبت به الطرق ، وتجاذبته الثقافات المختلفة ، تحاول كل منها ، أن تستأثر به وحدها ، ولكل منها مغرياتها ، ولكل منها منطقها .

ووقف « المحاسبي » مستوعباً ، متأملا ، متروياً .

هل طال به الوقوف ؟

متى خرج من تأمله ؟

متى استقر به الاتجاه ؟

ذلك مالا نعلمه إذا نظرنا إلى الزمن .

بيد أن « المحاسبي » ، وإن لم يعن بالتأريخ لحياته ، تأريخا زمنيًّا ، فإنه ترك لنا أثراً نفسيًّا ، أبان فيه عن بعض أحوال معاصريه ، وتحدث فيه عن حيرته الفكرية ، وعن أسبابها ، وعن كيفية خروجه منها .

وهذا الأثر نعتبره ، أساساً لكتاب : « المنقذ من الضلال » ، راسماً للإمام « الغزالى » تخطيطه ، موجهاً له إلى كتابته ، بل وراسماً له الطريق فى حياته الروحية ،

ولعل التشابه بين هذا النص الذى نثبته الآن ، وكتاب : « المنقذ من الضلال » يجعل بعض الناس يستنتج أن التشابه قوى بين « المحاسبي » ، « والغزالى » فى حياتهما ، ولنا فى ذلك رأى سنذكره فيما بعد إن شاء الله .

ولأهمية هذا النص بالنسبة « للمحاسبي » ولعصره ، وبالنسبة لصلته بكتاب المنقذ من الضلال ، صلة وثيقة نثبته بأكمله ، وإن كان فيه بعض الطول ، وقد كتبه المحاسبي مقدمة لكتابه : « الوصايا » الذى طبع أخيراً بالقاهرة ، يقول « المحاسبي » – فى مفتتح كتابه الوصايا – بعد مقدمة موجزة :

وأما بعد : فقد انتهى إلينا : أن هذه الأمة تفترق على بضع وسبعين فرقة ، منها : فرقة ناجية ، والله أعلم بسائرها .

فلم أزل ، برهة من عمرى أنظر اختلاف الأمة ، وألتمس المنهاج الواضح ، والسبيل القاصد ، وأطلب من العلم والعمل ، وأستدل على طريق الآخرة ، بإرشاد العلماء ، وعقلت كثيراً من كلام الله عزوجل ،

بتأويل الفقهاء ، وتدبرت أحوال الأمة ، ونظرت فى مذاهبها . وأقاويلها . فعقلت من ذلك ما قدر لى. ورأيت اختلافهم بحراً عميقاً ، قد غرق فيه ناس كثير . وسلم منه عصابة قليلة . ورأيت كل صنف منهم يزعم أن النجاة فيمن تبعهم ، وأن الهلك من خالفهم ، ثم رأيت الناس أصنافاً :

فمنهم العالم بأمر الآخرة : لقاؤه عسير ، ووجوده عزيز .

ومنهم الجاهل : فالبعد عنه غنيمة ، ومنهم المتشبه بالعلماء : مشغوف بدنياه ، مؤثر لها .

ومنهم حامل علم منسوب إلى الدين ، ملتمس بعلمه . التعظيم والعلو ، ينال بالدين من عرض الدنيا .

ومنهم متشبه بالنساك ، متجرٌ بالخير ، لا غناء عنده ، ولا بقاء لعلمه ، ولا معتمد على رأيه .

ومنهم حامل غلم . لا يعلم تأويل ما حمل .

ومنهم منسوب إلى العقل والدهاء ، مفقود الورع والتقى .

ومنهم متوادون : على الهوى يتفقون ، وللدنيا يتبادلون ، ورياستها يطلبون.

ومنهم شياطين الإنس : عن الآخرة يصدون ، وعلى الدنيا يتكالبون ، وإلى جمعها يهرعون ، وفى الاستكثار منها يرغبون ، فهم فى الدنيا أحياء ، وعن العرف موتى ، بل العرف عندهم منكر ، والسوء معروف ، فتفقدت فى الأصناف نفسى ، وضقت بذلك ذرعاً .

فقصدت إلى هدى المهتدين ، بطلب السَّداد والهدى ، واسترشدت العلم ، وأعملت الفكر ، وأطلت النظر ، فتبين لى فى كتاب الله تعالى ، وسنة نبيه ، وإجماع الأمة أن اتباع الهوى يعمى عن الرشد ، ويضل

عن الحق ، ويطيل المكث فى العمى !!!

فبدأت إسقاط الهوى عن قلبى ، ووقفت عند اختلاف الأمة مرتاداً لطلب الفرقة الناجية ، حذراً من الأهواء المردية ، والفرقة الهالكة ، متحرزاً من الاقتحام قبل البيان ، والتمست سبيل النجاة لمهجة نفسى .

ثم وجدت باجتماع الأمة فى كتاب الله المنزل ، أن سبيل النجاة : فى التمسك بتقوى الله ، وأداء فرائضه والورع فى حلاله وحرامه ، وجميع حدوده ، والإخلاص لله تعالى بطاعته ، والتأسى برسوله صلى الله عليه وسلم طلبت معرفة الفرائض والسنن عند العلماء فى الآثار ، فرأيت اجتماعاً واختلافاً ، ووجدت جميعهم مجتمعين على أن علم الفرائض والسنن : عند العلماء بالله وأمره ، وأن الفقهاء عن الله ، العاملين برضوانه ، الورعين عن محارمه ، المتأسين برسوله صلى الله عليه وسلم ، المؤثرين الآخرة على الدنيا ، أولئك المتمسكون بأمر الله وسنن المرسلين .

فالتمست من بين الأمة هذا الصنف المجتمع عليهم والموصوفين ، أقفو آثارهم ، وأقتبس من علمهم فرأيتهم أقل من القليل ، ورأيت علمهم مندرساً ، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« بدأ الاسلام غريباً ، وسيعود غريباً ، كما بدأ فطوبى للغرباء » وهم : المنفردون بدينهم .

فعظمت مصيبتى بفقد الأدلاء الأنقياء ، وخشيت بغتة الموت أن يفاجئنى على اضطراب من عمرى لاختلاف الأمة ، فانكمشت فى طلب عالم ، لم أجد لى من معرفته بدًّا ، لم أقصر فى الاحتياط ولم أن فى النصح .

فقيَّض لى الرءوف بعباده ، قوماً وجدت فيهم دلائل التقوى ، وأعلام الورع ، وإيثار الآخرة على الدنيا، ووجدت إرشادهم ووصاياهم موافقة لأفاعيل أئمة الهدى ، ووجدتهم مجتمعين على نصح الأمة ، لا يرجون أحداً فى معصيته ، ولا يقنطون أحداً من رحمته .

يرضون أبداً بالصبر على البأساء والضراء ، والرضا بالقضاء ، والشكر على النعماء ، يحببون الله تعالى إلى العباد ، بذكرهم أياديه وإحسانه ، ويحثون العباد على الإنابة إلى الله تعالى .

علماء بعظمة الله تعالى ، وعظيم قدرته ، وعلماء بكتابه وسنته ، فقهاء فى دينه ، علماء بما يحب ويكره ورعين عن البدع والأهواء ، تاركين التعمق والإغلاء ، مبغضين للجدال والمراء ، متورعين عن الاغتياب والظلم والأذى ، مخالفين لأهوائهم ، مالكين لجوارحهم ، ورعين فى مطاعمهم وملابسهم ، وجميع أحوالهم ، مجانبين للشبهات ، تاركين للشهوات ، مجتزئين بالبُلغة من الأقوات ، متقللين من المباح ، زاهدين فى الحلال ، مشفقين من الحساب ، وجلين من المعاد ، مشغولين بشأنهم ، مؤثرين على أنفسهم من دون غيرهم : لكل امرئ منهم شأن يغنيه . علماء بأمر الآخرة ، وأهاويل القيامة ، وجزيل الثواب ، وأليم العقاب ، ذلك أورثهم الحزن الدائم ، والهم المضنى ، فشغلوا عن سرور الدنيا ونعيمها .

ولقد وصفوا للآداب صفات ، وحددوا للورع حدوداً ، ضاق لها صدرى ، وعلمت أن آداب الدين وصدق الورع بحر لا ينجو من الغرق فيه شبهى ، ولا يقوم بحدوده مثلى ، فتبين لى فضلهم ، واتضح لى

نصحهم وأيقنت أنهم العاملون بطريق الآخرة والمتأسون بالمرسلين ، والمصابيح لمن استضاء بهم ، والهادون لمن استرشدهم فأصبحت راغباً فى مذهبهم ، مقتبساً من فوائدهم ، قابلا لآدابهم ، محباً لطاعتهم لا أعدل بهم شيئاً ، ولا أؤثر عليهم أحداً .

ففتح الله لى برهانه ، وأنار لى فضله ، ورجوت النجاة لمن أقرّ به أو أنتحله ، وأيقنت بالغوث لمن عمل به ، ورأيت الاعوجاج فيمن خالفه ، ورأيت انتحاله والعمل بحدوده واجباً على .

فاعتقدته فى سريرتى ، وانطويت عليه بضميرى ، وجعلته أساس دينى ، وبنيت عليه أعمالى ، وتقلبت فيه بأحوالى.

وسألت الله عز وجل أن يوزعنى شكر ما أنعم به على ، وأن يقوينى على القيام بحدود ما عرفنى به ، مع معرفتى بتقصيرى فى ذلك ، وأنى لا أدرك شكره أبداً.

ووجد « المحاسبى » نفسه حينئذ فى معسكر أهل المنة على وجه العموم ، وفى تيار الصوفية منهم ، على وجه الخصوص .

ولم يكن « المحاسبى » ، ذا طبيعة سلبية ، فكان لابد من أن يدخل المعركة ، ودخل المعركة فى قوة قوية ، مسلحاً بالعلم والتقوى .

ومن أجل ذلك : كان ذا أثر مزدوج .

لقد أثر باعتباره قدوة وأسوة .

وأثر باعتباره عالماً باحثاً .

أما كتبه : فإنها من الكثرة بحيث قدرها بعضهم بمائتى مصنف ،

حسبما روى السبكى فى « طبقات الشافعية » ، والمناوى فى : « الكواكب الدرية » .

وهذه الكتب – فى أغلبها الأعم – إنما هى فى هداية النفوس ، وترقيق القلوب ، والسير بالأرواح إلى عالم الفلاح : إنها فى أغلبها فى علم التصوف والسلوك .

يقول « التميمى » – كما جاء فى الكواكب الدرية – عن « المحاسبى » .

وهو إمام المسلمين فى الفقه ، والتصوف ، والحديث والكلام » .

ولقد كتب « المحاسبى » فى هذه العلوم جميعها ، بيد أن مسحته الظاهرة ، ونزعته الواضحة والكثرة الكثيرة من كتبه ، إنما كانت فى التصوف والكلام .

أما كتبه فى الكلام فقد بقى منها أهم كتبه فى هذا الموضوع ، وهو كتاب :

« فهم القرآن » حققه ونشره حديثاً الدكتور « حسين القوتلى » بلبنان ، ومنهجه فى الكتاب ، يفهم من عنوانه ، إنه كان يرجع إلى القرآن فى الرد ويتخذ منه مرشداً وهادياً ، ولعل السبب فى إهمال كتبه الكلامية وفقدها : هو حملة الإمام « أحمد بن حنبل » عليها .

يقول « الخطيب البغدادى » ، فى كتابه : « تاريخ بغداد » جزء ٨ ص ١١٤ : ، وكان أحمد بن حنبل ، يكره « للحارث » نظره فى الكلام ، وتصنيفه الكتب فيه ، ويصد الناس عنه » ويذكر هذه المسألة الإمام « الغزالى » فى كتابه : « المنقذ من الضلال » ويفصل الرأى

فيها ، ويحسم المسألة بحل موفق فيقول :

لقد أنكر « أحمد بن حنبل » ، على « الحارث المحاسبي » — رحمهما الله — تصنيفه فى الرد على المعتزلة .

فقال الحارث : « الرد على البدعة فرض » .

فقال أحمد : نعم ، ولكن حكيت شبهتهم أولا ، ثم أجبت عنها ، فلم تأمن أن يطالع الشبهة من تعلق بفهمه ، ولا يلتفت إلى الجواب ، أوينظر إلى الجواب ولا يفهم كنهه ؟ يقول الإمام الغزالى :

وما ذكره « أحمد » : حق ، ولكن فى شبهة لم تنتشر ، ولم تشتهر ، فأما إذا انتشرت فالجواب عنها واجب ، ولا يمكن الجواب عنها إلا بعد الحكاية ا هـ .

ولقد أصاب الإمام التوفيق فى رأيه .

وما من شك فى أن المعتزلة إذ ذاك كانوا يعملون جاهدين على نشر بدعتهم وأن بدعتهم كانت معروفة مشهورة .

ومهما يكن من شىء ، فقد كان الإمامان : « أحمد والمحاسبي » متعاصرين ، وحدث بينهما اختلاف فى الرأى ، يتعلق بالكتابة فى المسائل الكلامية ، وحمل الإمام « أحمد » على كتب الإمام « المحاسبي » فى علم الكلام ، فقلّ تداول الناس لها — فيما يبدو — واختفت شيئاً فشيئاً ، ولعل بعضها لا يزال موجوداً ، ولعل من المحتمل أن يكشف المستقبل عنها كما حدث ذلك بالنسبة لكتاب : « فهم القرآن » على أن رأى « المحاسبي » فى المسائل الكلامية معروف ، تحدث عنه « الشهرستانى » وغيره ، ممن كتبوا فى الملل والنحل ، وهو الرأى السلفى ، ولم تكن حملة

الإمام « أحمد » عليه ، لرأيه وعقيدته ، فذلك أمر يتفق فيه الإمامان ، وإنما كان إنكار الإمام « أحمد » عليه للأسلوب والطريقة التى ينصر بها الدين .

وما من ريب فى أن ما قام به الإمام « المحاسبى » فى الرد على المعتزلة وغيرهم ، من أهل الانحراف : إنما هو فى الوقت نفسه انتصار للإمام « أحمد بن حنبل » ، وتقوية له ، وعون على بلوغه غايته رضى الله عنهما .

أما كتبه فى أدب النفس وتزكيتها ، وفى الإنابة إلى الله ، والرجوع إليه وفى الرعاية لحقوقه ، وفى التصوف على وجه العموم ، فقد بقى منها كثير ، عرفنا منه جملة صالحة ، لا تزال مخطوطة ، وطبع البعض فى أوربا والقاهرة ، وسوريا ، ومن كتبه المخطوطة فى دور الكتب :

١ – كتاب المسائل فى الزهد .
٢ – فصل من كتاب العظمة .
٣ – كتاب فى المراقبة .
٤ – أحكام التوبة .
٥ – كتاب العلم .
٦ – كتاب الصبر والرضا .

ومن كتبه المطبوعة :

كتاب التوهم :

أول ما طبع للمحاسبى : « كتاب التوهم » طبع فى القاهرة سنة ١٩٣٧ م وقد عنى الدكتور أ ح . أربرى – بتحقيقه وكتب مقدمته الدكتور « أحمد أمين » ، وفى المقدمة يقول عن الكتاب :

« نحافيه منحىً طريفاً ، يدل عليه اسمه ، فلم يقتصر على ما ورد من الأخبار فى الخوف والرجاء ، كما فعل غيره ، بل استعمل توهمه — وبعبارة أخرى خياله — فى وصف شعور أهل الجنة ، وأهل النار ، وما يلقون من : سعادة وشقاء ، ونعيم ، وعذاب ، وأسلس لخياله القياد ، فتخيّل ما تخيّل وصوّر ما صوّر ؛ فهى لوحة جميلة لفنان أجاد ألوانها ، أو رواية رائعة لكاتب جمّل منظرها ، وفصّل مواقفها ، وصقل لغتها ، حتى يؤثر بالحقيقة التى تتضمنها فى نفوس القارئين ، والسامعين ، أكبر الأثر وأبلغه » .

رسالة المسترشدين :

وطبع له فى حلب « رسالة المسترشدين » حققه وخرّج أحاديثه ، وعلق عليه ، « عبد الفتاح أبو غدة » .

وهذه الرسالة اللطيفة الحجم ، يوجه فيها « المحاسبى » ، الإرشاد للمسترشدين ، الذين يريدون أن يكونوا من ذوى الألباب ، العالمين بالله وبأمره . . . ومنهاج ذوى الألباب — كما تحدده الرسالة — إنما هو رعاية مصادر الشريعة ، من كتاب الله تعالى ، وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام ، وما اجتمع عليه المهتدون من الأئمة ، وهذا هو الصراط المستقيم ، الذى دعا الله إليه عباده ، وقال عز وجل :

« وَأَنَّ هذا صِراطِي مُسْتَقِيماً فاتَّبِعُوهُ ، ولا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ، ذَلِكُمْ وصَّاكُمْ بِهِ ، لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ » .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين من بعدى ، عضوا عليها بالنواجذ ».

والرسالة إنما هى إرشادات توضح بعض زوايا هذا المنهج ، فهى تتحدث عن التوبة والتقوى والخطرات والخوف من الله ، والصبر والرضا ، وغير ذلك من أحوال اللائذين إلى الله ، السالكين إليه .

كتاب الوصايا :

وطبع له فى القاهرة أخيراً : « كتاب الوصايا » ، تحقيق وتقديم : « عبد القادر أحمد عطا » ، والعنوان مكتوب هكذا : « الوصايا : أو النصائح الدينية ، والنفحات القدسية ، لنفع جميع البرية » .

وموضوعه هو موضوع الكتاب السابق ، وإن كان على صورة أوسع ، وبأسلوب بين الحدة ، وهو أقل تعمقاً وجزالة من أسلوب الكتاب السابق .

كتاب الرعاية لحقوق الله عز وجل :

وكتاب الرعاية : هو أكبر الكتب التى بين أيدينا من كتب « المحاسبى » ، مخطوطة كانت تلك الكتب أم مطبوعة ، وربما لا يوجد فيما فقد من كتبه ما هو أكبر منه ، ويقع فى حوالى أربعمائة وستين صحيفة وهو على كل حال أهم كتبه ، فى نظر القدماء والمحدثين ، حتى لقد عرف به ، وإذا لم يذكر أحد المؤرخين القدماء من كتب « المحاسبى » إلا كتاباً واحداً : فإنه يكون الرعاية ، وهو بالنسبة « للمحاسبى » ، كإحياء علوم الدين

بالنسبة للغزالى ، وقد حاول المحاسبى أن يشرح فيه الطريق الذى يحقق الرعاية لحقوق الله تعالى .

وقد بلغ فى تحليل نزعات النفس ، ونزعات الهوى ، حداً لا يجارى ، يقول الأستاذ « مسينيون » عن هذا الكتاب .

إن المحاسبى : سما فيه بالتحليل النفسى إلى مرتبة لا تجد لها مثيلا فى الآداب العالمية إلا نادراً .

وحينما قرأه المرحوم : « الشيخ زاهد الكوثرى » ، قال معبراً عن حقيقة ظاهرة :

لقد كان أثر الإمام المحاسبى على الإمام « الغزالى » كبيراً ، لقد تبطن الإمام « الغزالى » كتاب الرعاية ، فى كتابه : الإحياء .

المسائل فى أعمال القلوب والجوارح :

وقد طبع هذا الكتاب بالقاهرة ، فحققه الأستاذ « عبد القادر أحمد عطا » ، والكتاب بحوث مفصلة فى الكلام عن إدخال السرور على المسلم ، والإسرار بالعمل والجهر به ، وطلب الشهرة بالعمل ، أولزوم المداراة والكلام عن الغرور ، والحديث عن النوافل ، وأعمال القلوب ، والمواعظ المطلوبة ، والجدال المرذول ، والتفويض إلى الله فى كل الأمور ، والحديث عن النفس ، وألوان الغفلة التى تعتريها ، وحدود النظر الجائز من الحرام وختمه بحديث عن النذور .

وأسلوب الكتاب أسلوب علمى تحليلى ، يسرى فيه الحماس ، وتبدو روح « المحاسبى » اليقظة المتوثبة . .

كتاب أدب النفوس :

وهو كتاب يفهم موضوعه من عنوانه ، إنه فى أدب النفوس وفيه يشرح « المحاسبى » الطريق التى يتخذها الإنسان لتهذيب نفسه وتزكيتها وهو فى رسمه لهذه الطريق يتبع السنن الإسلامى .

وإذا كان يرسم الطريق فإنه أيضاً يتحدث عن الصفات التى ينبغى أن يتحلى بها الإنسان حتى يكون فى مرضاة من الله وفى نعمة منه .

كتاب فهم القرآن :

ولقد كان يظن ، إلى عهد قريب ، أن كتاب « فهم القرآن » قد فقد ، وكان الأسف عليه شديداً ، ثم كان السرور حينما أعلن أن الكتاب موجود وحينما أخرجه الدكتور « القوتلى » فى ثوب أنيق معلقاً عليه ، ومقدماً له ، ونشره مع كتاب « مائية العقل » للمحاسبى أيضاً فى مجلد واحد فجزاه الله خيراً .

أثر « المحاسبى » فى الفكر الإسلامى :

إن تأثير « المحاسبى » فى الأجيال التالية له : لا ينكر ، إنه من الواضح ، أن تلميذه الأكبر – وإن لم يلتق به – كان الإمام « الغزالى » .

إن الإمام « الغزالى » ، يعترف بأنه قرأ كتب « الحارث المحاسبى » . قال ذلك فى كتابه : « المنقذ من الضلال » ولقد قرأ أيضاً سيرة « الحارث المحاسبى » ، وتحدث عن الخلاف الذى كان بينه وبين الإمام « أحمد

ابن حنبل » ، ثم إنه نقل عنه فى كتابه : « الإحياء » كثيراً من الآراء والنصوص .

وفى كتاب : « الإحياء » يقول عنه الإمام « الغزالى » ، دون تحفظ ولا استثناء ، هذا التقدير الهائل « المحاسبى » خير الأمة فى علم المعاملة .

وله السبق على جميع الباحثين عن عيوب النفس ، وآفات الأعمال ، وأغوار العبادات ، وكلامه جدير بأن يحكى على وجهه .

هذه الشهادة أو التقدير من الإمام « الغزالى » ، كان له أثر كبير فى كتاب الإحياء ، فإن كتاب الإحياء : تضمن تقريباً كتاب : « الرعاية » ، وكلمة الشيخ « زاهد الكوثرى » ، رحمه الله ، سبق أن ذكرناها إذ يقول :

« لقد تبطن الإمام « الغزالى » ، كتاب الرعاية فى كتابه الإحياء » .

ولكن أثر « المحاسبى » كان أيضاً كبيراً قبل الإمام « الغزالى » ، يقول السبكى عنه :

« عالم العارفين فى زمانه ، وأستاذ السائرين ، الجامع بين علمى الباطن والظاهر » ، ويقول « الشعرانى » عنه : « إنه : أستاذ أكثر البغداديين » .

لقد كان رحمةُ الله عليه أستاذ أكثر البغداديين ، وعالم العارفين فى زمانه ، وامتد تأثيره إلى الإمام « الغزالى » وإلى الصوفية من بعده ، واستمر هذا التأثير قرناً ، فقرناً ، واستمر تقدير علماء الصوفية له قرناً ، فقرناً ، حتى إذا كان القرن الحادى عشر الهجرى ، وكان المناوى صاحب التآليف الكثيرة المشهورة المعروفة كتب عن « المحاسبى » فى كتابه :

« الكواكب الدرية » يقول :

« المحاسبي » البصرى : عَلَمُ العارفين فى زمانه ، وأستاذ السائرين فى أوانه ، عالم سار فينا فضله ، وصوفى طار نبله ، برع فى عدة فنون ، وتكلم على الناس فأراهم الجوهر المكنون ، وأحيا القلوب بوعظه ، وشنّف الأسماع بدُرّ لفظه ، تصانيفه مدونة مسطورة ، وأقواله مبوبة مشهورة ، وأحواله مصححة مذكورة ، وكان فى علم الأصول راسخاً راجحاً ، وعن الخوض فى الفضول جانحاً ، وللمخالفين الزائغين قامعاً وناطحاً ، وللمريدين مربياً وناصحاً .

قال « التميمى » :

« هو إمام المسلمين فى الفقه ، والتصوف ، والحديث ، والكلام » .

وقال غيره :

« وله المصنفات النافعة الجمة ، بحيث تبلغ نحو مائتى مؤلف ، وناهيك برعايته ، وكتبه فى هذه العلوم ، أصول لمن صنف فيها » .

وقال فى الإحياء :

« المحاسبي » خير الأمة فى علم المعاملة ، وله السبق على جميع الباحثين عن عيوب النفس ، وآفات الأعمال وأغوار العبادات ، وكلامه جدير بأن يحكى على وجهه » .

على أن التقدير الذى نحب أن نعيد تسجيله هنا : هو ما كتبه ، الأستاذ « لويس مسينيون » عن كتاب : « الرعاية فى كتابه مصطلحات التصوف » .

إن « المحاسبي » : سما فيه بالتحليل النفسي إلى مرتبة لا نجد لها مثيلا في الآداب العالمية إلا نادراً .

رحم الله تعالى ، الإمام « المحاسبي » رحمة واسعة ، ونفعنا بما تركه لنا من تراث روحي مجيد .

التوكل

وننقل هنا أيضاً من الرسالة موضوع « التوكل » وذلك لما يحصل فيه من جدل بين الناس الذين يبحثون في موضوع الروحانيات :

التوكل يفيد ثقة المؤمن المطلقة في الله ، ويقينه بأن أي الأعمال في هذه الدنيا لا يغير من المصير المحتوم .

وهو مفهوم يمكن تطبيقه في سائر الأحوال ، ويؤمن به المسلمون جميعاً .

وحديث التوكل في المؤلفات الإسلامية ، يشتمل دائماً وفي كثير من التفصيل على مسألتي المال والكسب الحلال . هل يتعارضان مع التوكل ؟

وإذا وثق العبد في الله ، وآمن بمصيره ، أي : أيقن بأنه صائر – لا محالة – إلى ماقدره له الله منذ القدم ، وأنه نائل نصيبه المحتوم ، من الخير أو الشر ، ومن الغنى أو الفقر ، بإرادة الله ، وأن العمل – قلّ أو كثر – لن يغير شيئاً مما سوف يكون ، ومما كتبته عليه يد الله من قبل أن ينشئ العالم ، إذا أيقن المؤمن بذلك كله ، فكيف لا يكون سعيه إلى ما ضمنه له الله من رزق نقصاً في العبادة ، وإهمالاً لحقوق الله ؟

ولقد أثارت المسألة جدلاً مستفيضاً بين الكثيرين من الصوفية ، والفقهاء .

وكتاب « تلبيس إبليس » يبين مدى ما وصل إليه هذا الجدل ، من عنف وحدة .

ونريد قبل كل شيء إيضاح بعض جوانب موقف الإسلام من القضية .

إن المال يحتل مكاناً هاماً من نصوص القرآن ، والأحاديث ، والفقه .

ففى القرآن نجد تنظيماً وتشريعاً للميراث ، والأحاديث تكمل نصوص القرآن فى ذلك ؛ وكل كتاب فقه إسلامى يتضمن فصلا مطولاً فى الإرث .

كذلك نجد فى القرآن والأحاديث تشريعاً للزكاة ، وللوصية وللصدقة ، وغير ذلك من المسائل المتعلقة بالمال .

اعترف الإسلام – إذن – بمنافع المال ، وأهمية دوره ، فلا غرابة فى أن يحث على العمل ، وهو وسيلة اكتساب المال . وأغلب أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم كانوا من ذوى المهن أو الوظائف .

ولكن القول بأن للمال أهمية زائدة فى المفاهيم الإسلامية خطأ فاحش .

فالمال ، مهما كان أمره ، ليس فى الواقع إلا جزءاً من القيم المادية الفانية فى الحياة الدنيا ، والسعى لاكتسابه وإن سمح به الدين وحث عليه بل أوجبه فإنه لايدانى فى شيء مسعى الإنسان إلى اكتساب القيم الروحية ، التى لا تفنى ، والمتعلقة بالعالم الآخر .

وعلينا ألا ننسى أن الإسلام دين ، وأن « محمداً » صلى الله عليه وسلم نبي ، ولا يمكن أن يكون للدين وللنبي صلى الله عليه وسلم هدف ، إلا ما سما إلى الله والآخرة .

والمال – فى حد ذاته – ليس بذلك ، والهدف الحق للإسلام والنبي صلى الله عليه وسلم ، نجاة الإنسان ، ومن أجل هذا كان الاهتمام بالمال منصباً على تحويله إلى أداة لخير الإنسان ، وعلى تحويل شهوته الدنيئة فى قلب الإنسان إلى التراحم ، والإنفاق فى سبيل الله .

وهذا هو السبب لما نجده فى القرآن من وعيد متكرر ، للذين يكنزون الذهب والفضة ، أو الذين يلهيهم حب المال عن القيام بحقوق الله .

ولعل « أبا ذر » الذى قيل عنه إنه أول شيوعى فى الإسلام لم يبتعد كثيراً عن المفاهيم الإسلامية ، حين كان يحمل فى مواعظه على بذخ بلاط « معاوية » وإسراف الأمراء .

وكان شعاره الآية القرآنية التالية :

« يَأَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيراً مِنَ الأَحْبارِ والرُّهْبانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوالَ النَّاسِ بِالباطِلِ ، ويَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ ، والذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ والفِضَّةَ ولا يُنْفِقُونَها فِى سَبِيلِ اللهِ ، فَبَشِّرْهُمْ بِعَذابٍ أَلِيمٍ » .

فإنفاق المال فى أغراضه الصحيحة ، لا يمكن أن يكون إلا وسيلة لبلوغ الأهداف العليا الرفيعة ، واستخدامه فى أعراض دنيا يؤدى بالإنسان إلى الانسياق فى سبيل الشيطان ، ولا بد للإسلام كدين أن يذمّه فى هذه الحال .

والعمل لاكتسابه مسموح به ، بل هو مطلوب مادام حلالاً .

أما العمل لاكتسابه من غير الطرق الحلال ، فهو أمر ينهى عنه الإسلام فى قوة ، ويتوعد من يقوم به ، بشر العقاب فى الدنيا والآخرة .

والخلاصة هى أن الله أمر بالضرب والمشى فى مناكب الأرض ، والسعى فى أرجائها ، لاكتساب المال ، ولقد استعاذ رسول الله صلى الله عليه وسلم من الفقر ، وقال : « اليد العليا خير من اليد السفلى » ولكن ذلك كله مشروط بأن يكون الكسب حلالاً ، وألا يتسم بالجشع ، أو بالحسد ، أو بالحرمة .

ولنعرض الآن ، وعلى ضوء ما تقدم ، موقف المحاسبى من هذه المسألة :

إنه يقول فى كتابه « المكاسب » :

فأخبر – جل ثناؤه – بقسمة الرزق بين خلقه ، وتوليه ذلك فى مواضع – من كتابه جل وعز – كثيرة ، ثم دعا الخلق سبحانه – إلى التوكل ، بعد أن أعلمهم بكفالته لهم ، وتقسيمه بينهم .

فأوجب – جل وعز – التوكل ، وفرضه على الخلق .

فهل نفهم من ذلك : أن كل عمل للإنسان – سعياً وراء رزقه الذى قسمه الله ، وتولاه ، يعتبر فى الإسلام نقصاً فى التوكل ، وذنباً ؟

يجيب « المحاسبى » على هذا التساؤل بالنص قائلاً : « فالذى يجب على الناس فى جملتهم من التوكل المفترض عليهم : التصديق لله جل وعز ، فيما أخبر من قسم ، وضمان الكفاية . وكفالتها فى سياقة الأرزاق إليهم ، واتصال الأقوات التى قسمها فى الأوقات التى وقتها ، بتصديق تقوم الثقة به فى قلوبهم ، وتنتفى به الشكوك عنهم ، والشبهات ، ويصفو به

اليقين ، وتثبت به حقائق العلم أنه الخالق الرازق ، المحيي ، المميت ، المعطى ، المانع ، المتفرد بالأمر كله ، فإذا صح هذا العلم فى القلوب ، وكان ثابتاً فى عقود الإيمان . تنطق به الألسنة إقراراً منها بذلك لسيدها ، وترجع إلى ذلك بالعلم عند تذكرها ، وقع الاسم عليها بالتوكل . وعلى أى حال ، فإن عامة الناس ، إذا خرجوا بالذكر فى وقت الطلب أذعنوا بالقلوب ، والألسنة أنهم لا يصلون إلى شيء من ذلك بالحيلة ، وأن الحركة غير زائدة لهم فى أنفسهم ، ولا مُوصّلة لهم إلى الزيادة .

والعمل والسعى للرزق ليسا سوى : حركات الطبع الذى عليه البنية ، وهذا من خلق الله فى العباد وإن لم تزل حركات الطباع وما فى الخليقة من محبة الكثرة ، وتعجيل الوقت ، والتسبب إليه بالأسباب فلم يزل الله سبحانه عنهم اسم « التوكل » .

لأن ما فى الطباع من الحركة لا يخرجهم مما أوجبنا من التصديق لهم ، لأن الله لم يستعبدهم بإزالتها وإنما استعبدهم بإقامة الطاعة ، وأخذ الشيء من حيث أباح أخذه .

أما ما حرمه الله على العبد من الحركة ، فهو التعدى لما أمر الله والتجاوز لحدوده ، وذلك أن الله سبحانه لما فرض التوكل على خلقه ، وأباح لهم الحركة فى ذلك ، ولما غيّب عنهم التفرس من محبة تعجيله ، حدَّد للخلق حدوداً فى الحركة ، وفرض عليهم فروضاً أحكمها .

فإن خالفوا ذلك ثبتت عليهم بخلافه الحجة . فمن كانت حركاته فى طلب الرزق ، على ما وصفنا ، كان لله جل وعز بذلك مطيعاً ، محموداً عند أهل العلم ، ولكن هناك من مراتب « الحركة » الإنسانية

ما هو « أرفع فى الدرجة ، وأعلى فى الرتبة » فإن السعى للرزق أمر حلال ، ومحمود ، ولكن السعى من أجله مع إحكام فرض التوكل فى أصله ، والزيادة فى العمل بالمعرفة لله ، ومع طهارة القلب وإدامة الذكر ، وكثرة التقرب إلى الله بالنوافل . . . فذلك هو حقيقة التوكل ومحكمهُ ، والتعالى فى ذروة ما أقيم فيه الأنبياء والصديقون وخواص المؤمنين .

أما الدلائل على أن الحركة فى طلب الرزق أمر حلال محمود ، فهى كثيرة ، وفى وجوه عديدة ، ونجدها فى القرآن والحديث وسنة النبى صلى الله عليه وسلم وسير الصحابة .

فى القرآن نرى مثلاً : « رِجالٌ لا تُلْهِيهِمْ تِجارَةٌ ولا بَيْعٌ عن ذكر الله » .

وفى الحديث : ما بعث الله نبياً إلا رعى الغنم » ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم عن نفسه .

« كنت أرعى الغنم لأهل مكة بالقراريط ».

وفى القرآن قصص لأنبياء كانوا يحترفون مهنًا ، منهم « موسى » و« داود » .

ومن الحديث « أطيب ما أكل المؤمن من كسبه ».

وفى حديث يقول عنه « المحاسبى» إنه :

لا يدفعه أهل العلم والنقل ولا أعلمهم يختلفون فيه » أما الدلائل المستخلصة من سير الصحابة ، فيأتى بها « المحاسبى» بعد فصل طويل فى امتداح أخلاقهم ، ويبدأ كعادته بذكر الخلفاء الأربعة الأول .

فقد كان من « أبى بكر» لما استخلف :

أن رأى الكسب على عياله أفضل الأعمال ، وأوصل القربة وأعلى الطاعة فمضى إلى السوق مكتسباً عليهم ، فأدركه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكلموه فى ذلك ثم فرضوا له فرضاً رضى به ، وإنما كان ذلك الرضى منه حتى يفرغ لأمور المسلمين ، ويولى أمتهم كل عنايته . وكذلك كان « عمر بن الخطاب » . إذ رأى بعد استخلافه أنه لم يعد يجد من الوقت ما يسمح له بالكسب إلا إذا أهمل الأمانة . التى وقعت عليه ، فكان يأخذ ما يعفه بقوله .

ثوبين للشتاء والقيظ ، وظهراً أحج عليه ، وقوت رجل من قريش ليس بأوضعهم ولا بأرفعهم ولكنه كان مع ذلك يتساءل .

والله ما أدرى أيحل لى أم لا ؟

وقد سار « عثمان » و « على » من بعده على نهج « أبى بكر » و « عمر » .

ويروى « المحاسبى » بعد ذلك قصة « عبد الرحمن بن عوف » إذ آخى النبى صلى الله عليه وسلم بينه وبين « قيس بن الربيع » عرض « قيس » على « عبد الرحمن » نصف ما يملك ، وكان مال « قيس » ، المال الصامت ، الذى يرغب فى مثله ، ولكن « ابن عوف » رفض قائلا :

لا حاجة لى بذلك ، دلّنى على السوق . ومضى إلى السوق متكسباً على نفسه ، وذلك لما عند « عبد الرحمن » من فضل الكسب ، وفضل الحركة لطلب الثواب .

وكذلك يروى عن النبى صلى الله عليه وسلم : « أفضل ما أكل الرجل من كسبه » .

فآثر « عبد الرحمن » الكسب ، على مال طيب ، عرض عليه من

غير مسألة ، ولا إشراف من نفس .

تلك هى الأدلة التى يسوقها « المحاسبى » ، وقد استخلصها من الكتاب والسنة ، وفعل أكابر أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ويختم حديثه عنها بقوله : والأخبار فى هذا والاحتجاج بها كثيرة . وفيما أوردنا وذكرنا من ذلك كفاية إن شاء الله . والحركة للكسب . إذن . ليست حراماً إنها حلال ، بل هى فرض ، على العباد .

المحاسبى » فى كتابه « رسالة المسترشدين » يوصى المؤمن بألا يجعل نفسه قط عالة على الآخرين . وذلك أن العبد إذا جعل نفسه فى وصاية غيره فقد حريته فى الدعوة إلى الحق ، متنزهاً عن الرياء .

وفى وصاياه الخاصة بالسلوك اليومى للعبد ، فى مختلف مؤلفاته ، يفرد « المحاسبى » مكانًا للكسب والعمل .

فى كتاب « الرعاية » يحدثنا مطولا عن العمل الذى يحبه الله من العبد ، وفى كتاب : « المسائل فى الزهد » يذكر الحديث التالى للرسول صلى الله عليه وسلم :

« الساعى على الأرملة ، والمسكين ، كالمجاهد فى سبيل الله ، القائم ليله ، والصائم نهاره » ويقول « المحاسبى » :

فأفضل الأعمال لكل أهل زمان ما كانت عليه الأوائل من تعليم السنن والعطف على أهل العدم ، لأن الله الغنى الحميد لا ينتفع بطاعة ولا تضره معصية ، وإنما أمرك بطاعته لينفعك ، فأحب الأشياء إليه من طاعته ما عاد نفعه على غيرك . بل إن السعى للرزق فرض على المؤمن فى كثير من الأحيان ، وتركه ذنب كالسعى فى رزق الأب والأم ، والزوجة ،

والأولاد المعوزين ، ألم يقل النبي صلى الله عليه وسلم : « كفى بالمرء شراً أن يضيّع من يعول ؟ » .

ويعلق « المحاسبي » على هذا الحديث قائلاً :

ولا يكون قول النبي صلى الله عليه وسلم ذلك ، وهو لا يجب عليه عيلتهم ، ولا حينما تكون عيلتهم تطوعاً منه يتطوع به ، لأن الشر بلاء واقع ، وعقوبة نازلة ، والله جل ثناؤه لا يعاقب على ترك مالا يجب .

وعلى أى حال ، فلم يختلف المسلمون فى أن مثل هذا السعى واجب عليهم . . والمحاسبى لا يكتفى بأن يسوق الأدلة والدفاع عن هذا الرأى ، وإنما يقوم بنقد من يحرمون الكسب . . فيقول بأن هناك أقواماً يزعمون أن السعى للرزق يتعارض مع التوكل ، وهم فى الواقع إنما جهلوا حقيقة السنة ، وسير الأنبياء فى كل زمان مما يرويه لنا القرآن . .

فمن ذلك ما زعم « شقيق » ، وذلك أنه قال :

لما ضمن الله تعالى الرزق والكفاية كانت الحركة شكًّا فيما ضمن فحمل الأمر فى ذلك على رأيه ، فخالف الكتاب والسنة ، وما عليه أكابر أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وجلة التابعين من بعدهم . .

ويتابع المحاسبى نقده للفرق الأخرى القائلة بعدم التكسب ، وذلك بأسلوب غاية فى التشويق ، معتمداً على الكثير من الأدلة والبراهين غير تلك التى ذكرناها فيما سبق ، ولذلك لا نرى أن هناك أى مجال للاختلاف حول اراء المحاسبى فيما يتعلق بالكسب .

وكتابه « المكاسب » الذى اعتمدنا عليه أساساً فى بحثنا قد ألف فى فترة متأخرة من عمره ، بعد بلوغه الرابعة والخمسين . .

فهو – إذن – يعبر عن آرائه فى فترة النضوج ، بل يمكن القول إن الآراء التى ضمنها هذا الكتاب هى آراؤه النهائية فى الموضوع .

* * *

وما سبق من العرض يتعلق كله بالكسب فى الأرزاق الضرورية للحياة . .

ولنحاول الآن النظر فيما إذا كانت الحركة عامة – أو الحذر أو اليقظة أو التدبير – يتعارض شىء منها مع « التوكل » .

والمسألة هى مسألة الكسب نفسها ، وإن كانت مسألة الكسب أكثر تعقيداً . . فمن ناحية نجد الإرادة الإلهية الخالدة بما قدرته من مصير للإنسان لا مغير له ، ومن الجانب الآخر نجد الحركة والعمل من أجل إصلاح ظروف الحياة الإنسانية ، ومن أجل مجانبة الشر .

ولا نريد الإطالة فى شرح موقف المحاسبى ، ولا نحتاج إلى ذلك ، فقد كانت حياته كلها سعياً إلى إصلاح الإنسان ، ومحاولة لتجنيبه الشر والنجاة منه ، ومؤلفاته بأكملها تعبر فى قوة عن هذا الموقف .

ولنكتف بذكر بعض النصوص ذات المغزى الواضح من كتابه « الرعاية » يدلنا فيها على المبدأ الذى يحكم موقفه من مثل هذه المسائل عامة . .

وفى هذا النص يتحدث « المحاسبى » عن « إبليس » ، وينبه القارئ إلى أن « إبليس » من عناصر الشر التى تدفع إلى ارتكاب الذنوب ، ويحذر منه ، ثم يتحدث عن قوم من أهل الشام يزعمون

أن الحذر من إبليس لا يصح . .

فالحذر لغير الله عز وجل نقص من اليقين والتوكل ، فالأولى الثقة بالله عز وجل واليقين ، لأنه لا ضار ولا نافع غيره . .

ويرد « المحاسبي » على هذا القول بأنه غلط ، فالعبد لا يحذر « إبليس » إلا لأن الله أمره بذلك ، والحذر من « إبليس » لا يكون خوفاً منه ، فهو لا يغير مما أراده الله شيئًا ، وإنما يكون واجباً طاعة لله ، واتباعاً لأمره فيمن أمر بالحذر منه . .

أجل ، بل إن الأمر الإلهى بذلك نعمة على العبد وعون له .

ألم يحذر النبي بأمر ربه من أشياء أقرب إلى البشر من « إبليس » ؟

وهل كان نقصاً فى التوكل أن أطاع النبي كلام الله ، إذ أمره بأخذ حذره من العدو ، وبصلاة الخوف فى الحرب ؟

وهل كان نقصاً منه فى التوكل أن قام بحفر الخندق .

إن اليقين ليعمر القلب بأن الله خالق كل شيء ، ومحرك كل شيء ولكنه أمر بأمور واجبة ، وتركها بزعم أنها نقص فى التوكل عليه ليس سوى مخالفة لأمره .

فالطاعة — إذن — هى السبيل الصحيح :

وناقص اليقين من ضيع أمره إرادة كمال اليقين . .

أما التعلق بالأسباب والعلل وعدم النظر إلى غيرها فذلك الغلط الذى يجب على المؤمن مجانبته . .

« كيف عرفت عبد الواحد يحيى » ! !

« رينيه چينو »

إنى لأذكر ذلك اليوم ، المشمس الجميل ، من شهر يونيو سنة ألف وتسعمائة وأربعين ، فقد صحوت من نومى مبكراً ، أتأهب لخوض غمار معركة علمية هى : مناقشة رسالة الدكتوراه ، فى جامعة « السربون » ، سرت فى طريق ، ميمماً شطر الجامعة ، وكنت أينما التفت ، لا أجد إلا وجوهاً يجللها الوجوم ، ونفوساً يعروها الذعر ، ويطاردها الخوف :

فقد كان « الألمان » يحثون الخطى ، إلى قلب « باريس » ، ويدكون فى عنف ، كل ما يعترضهم من قلاع وحصون ، ولكنى كنت مشغولا عن هذا كله بما يتردد فى نفسى ، ويجول بذهنى من اعتراضات ستلقى ، ونقد سيوجه ، ووصلت إلى فناء السربون ، فإذا بى أجد صديقى « بول ريفوليتى » — وهو من الروس البيض ، الذين هاجروا إلى باريس — ينتظرنى ، وبيده كتاب هو « صوفية دانت » وطلب إلى أن أوصله إلى الشيخ « عبد الواحد يحيى » فى مصر : إذ كان من المقرر عندى أن أسافر غداة ذلك اليوم الذى تناقش فيه رسالتى ، حاولت أن أعرف من صديقى من هو الشيخ « عبد الواحد يحيى » ، فآثر الصمت متعمداً ،

العودة إلى القاهرة

وانتهت المناقشة ، ومرت الأيام بخيرها وشرها ، وحلوها ، ومرها ، ووصلت فى النهـاية إلى القاهرة ، ولم يكد يستقر بى المقام فيها ، حتى يممت شطر ضاحية « الدقى » باحثاً عن الشيخ « عبد الواحد » ، وفى شارع « نوال » (فيلا فاطمة) طرقت الباب : فأطلت الخادم التى أعطيتها الكتاب ، وطلبت إليها أن تستأذن فى مقابلة الشيخ ، ثم وقفت أنتظر الإذن بالدخول ، فإذا بى أجد الخادم مقبلة نحوى وبيدها مقعد من الخشب عليه مسحة الخشونة والشظف ، وتطلب إلىّ أن أنتظـر هنيهة من الزمن .

وجلست أمام الباب فى الشارع ، أنتظر الدقائق تمر ، والانتظار يطول ، أرى الخادم مقبلة فأهم للدخول ، ولكنها تطلب منى أن أنصرف اليوم ، غير مطرود ، وأحضر فى الغد ، فى الساعة الحادية عشرة فأنصرف متراخياً ، وفى نفسى دهشة ، وعلى وجهى شىء من طابع الخجل ، ومع ذلك فقد أثارت هذه الحادثة رغبتى فى أن أرى هذا الشيخ ، الذى يضع الكرسى فى الشارع للزائرين ، والذى يأمرهم بالانصراف اليوم ، ليحضروا إليه فى الغد .

وحضرت من الغد ، فى الموعد المضروب ، وكنت دقيقاً كالساعة ، وطرقت الباب وفى قلبى إشفاق وفى نفسى تطلع إلى الدخول ، ولم يكن حظى فى هذا اليوم بأسعد منه فى اليوم السابق ، فقد صُرفت ولكن لا

إلى موعد يبعث فى النفس الأمل ، بل أبلغت عن لسانه بأن أكتب إليه ما أريد وهو يتولى الرد على ما أحب ،

وانصرفت بعد أن أضعت يومين فى محاولة لقائه ، لم أكتب إليه ، وفيم أكتب إليه ؟ . . ومرت الأيام ولم يزل من نفسى هذا التساؤل . . . من هو هذا الشيخ « عبد الواحد يحيى » ؟

وفى يوم من الأيام كنت أزور « مسيو دى كومنين » مدير البعثة العلمانية الفرنسية بمصر ، وهو شخص له خطره وأثره ومكانته فى الأوساط المصرية : وجرى الحديث على العادة فى فنونه وشئونه : وإذا به يسألنى هل أعرف « رينيه جينو » ، فلما أجبت بالنفى ، أخذ يحدثنى عنه وعن اسمه الإسلامى :

« عبد الواحد يحيى » ، فحدثته بما كان بينى وبينه : فأخذ يرجونى فى أن أعُود إلى محاولة لقائه من جديد ، وأن أستأذن له كذلك فى لقائه ، ولكننى مع ذلك لم أجد فى نفسى عزيمة تدفعها إلى إعادة المحاولة ، فقد كان الكرسى الخشب لا يزال ماثلاً أمام ناظرى . . . ومرت الأيام أيضاً ،

وفى ذات يوم يحمل إلىّ البريد رسالة من أستاذ جليل يقول فيها : إن « مسيو هيكتور ماديرو » وزير الأرجنتين المفوض فى مصر قد زاره بمكتبه ، ورجاه فى أن يرشده إلى شخص يمكنه أن يتحدث معه عن الفلسفة الإسلامية والتصوف الإسلامى ، ولم أجد من يصلح لهذه المهمة سواك ، وطلب إلى أن أقابله والتقيت بالوزير ، فكان أول ما يستفسر عنه : أتعرف « رينيه جينو » ؟ ومر بذهنى مرة أخرى الكتاب والكرسى الخشبى وحديث « مسيو دى كومنين » ، وذكرت كل ذلك للوزير ، وقال الوزير :

إنك قد وصلت إلى نقطة حاسمة ، هى معرفة بيته ، وفى هذا نصر عظيم ، إذ أن الصحفيين الفرنسيين والسويسريين ، وغيرهم يأتون إلى مصر ، فيجعلون من بعض مهامهم البحث عنه ، ويتجهون أول ما يتجهون نحو حى الأزهر ، وحى « سيدنا الحسين » أو السيدة « زينب » ولكنهم لا يعثرون له على أثر ، فيعودون وفى نفوسهم حسرة ، لأنهم لم يقضوا وطراً شهيًّا من زيارة مصر ،

وصح منا العزم ذات يوم ، أنا « ومسيو ماديرو » ، على أن نخترق الحجاب المضروب بيننا وبين الشيخ « عبد الواحد » . . .

لا أزال أذكر ذلك اليوم ، وكان يوم أحد ، حيث وقفنا أمام باب (فيلا فاطمة) تدق الجرس ، وبعد برهة إذا شيخ طويل القامة ، يكاد وجهه يضيء نوراً ، عليه سمت المهابة ، وطابع الوقار والجلال ، تشع عيناه ذكاء وتنطق قسماته بالصلاح والتقى ، إذ بهذا الشيخ يفتح الباب بنفسه ، ويقف أمامنا وجهاً لوجه : فألقينا إليه بالسلام ، فرد التحية ، ثم سألنا عن مقصدنا فأبلغه الوزير سلام أحد أصدقائه ، فما إن سمع اسم صديقه حتى أذن لنا بالدخول ، ودخلنا والتزم الشيخ الصمت ، وقد كان من الممكن أن يكون الموقف حرجاً ، لولا دبلوماسية الوزير ، الذى أخذ يتحدث ويتحدث ، ذاكراً آراء الشيخ « عبد الواحد » ، مثنياً عليها مشيراً إلى دقتها ، كل ذلك والشيخ « عبد الواحد » صامت لا يكاد ينبس ببنت شفة ، وانتهت الجلسة ، وطلبنا إليه أن يسمح لنا بأن نعود لزيارته مرة أخرى : فأذن فى تلطف وفى رقة .

وحين عدنا إلى المفوضية بعد لقائه : قال الوزير : لعقيلته متبسطاً :

لقد قابلنا اليوم شخصية هامة جداً : فمن تظنين ؟

– وزير الخارجية ؟

– أعظم ،

– رئيس الوزراء ؟

– أعظم ،

– الملك ؟

– أعظم ،

– ربنا ؟

– إنه على كل حال شخصية إلهية ، إنه « رينيه چينو »

فقالت فى دهشة واستغراب : أحقاً ؟ يا لكما من سعيدين ، ولكنها ما لبثت أن ثارت ثورة عارمة : لم لم تأخذانى معكما ؟ ، واتجهت إلى زوجها قائلة : أنت تعلم أنى فى شوق شديد لرؤيته ، فلم لم ترع هذا الشعور ؟ وو . . .

وعدنا وتكررت الزيارة ، وتحدث الشيخ « عبد الواحد » وأفاض فى الحديث .

وذكر لنا أن عزلته هذه إنما هى عزلة بالنسبة للمتطفلين ، الذين لا يرغبون إلا فى إضاعة الوقت بالأحاديث الشخصية التافهة ، ولكنه وقد رأى فينا رغبة صادقة فى المعرفة ، فليس بيننا وبينه – إذن – حجاب .

واستطعنا بعد ذلك أن نخرجه من وكره ، وأن نصحبه إلى مسجد السلطان « أبى العلا » فى الليلة الكبيرة من مولده ، وجلسنا فى حلقة من حلقات الذكر ، فأخذ يهمهم فى نفسه ويهتز ، ثم أخذ كلامه يبين .

واهتزازه يشتد : وإذا به يذكر مع الذاكرين فى نبرة واضحة ، وفى هزة رتيبة ، ثم إذا به ينغمس فى الذكر ويستغرق ، ولم أكد أنبهه بعد فترة حتى انتفض انتفاضة قوية ، خلت أنها انتفاضة العائد من آفاق قصيَّة مجهولة .

وتتابعت الأيام وسافر الوزير ومات الشيخ « عبد الواحد » ، ولم يبق فى نفسى سوى الذكريات الجميلة ، ثم هيأ الله لى أن أطبع « المنقذ من الضلال » للإمام « الغزالى » ، فقدمت له بمقدمة فى منطق التصوف جعلت من بعض فصولها تلخيصاً لمقال عن التصوف ، بقلم الشيخ « عبد الواحد » . وقد نال هذا الفصل استحساناً كثيراً ، لدى القراء ، فشجعنى ذلك على أن أستفيض نوعاً ما فى دراسة الشيخ فألفت كتاباً صغير الحجم عنه ، ضمنته فيما بعد فى كتاب « المدرسة الشاذلية » وذلك أن الشيخ رحمه الله كان شاذلياً .